مدار الوطن
٤٣٩

ترغيب الكرام في
حج البيت الحرام

من كلام الإمام الحافظ

ابن رجب الحنبلي

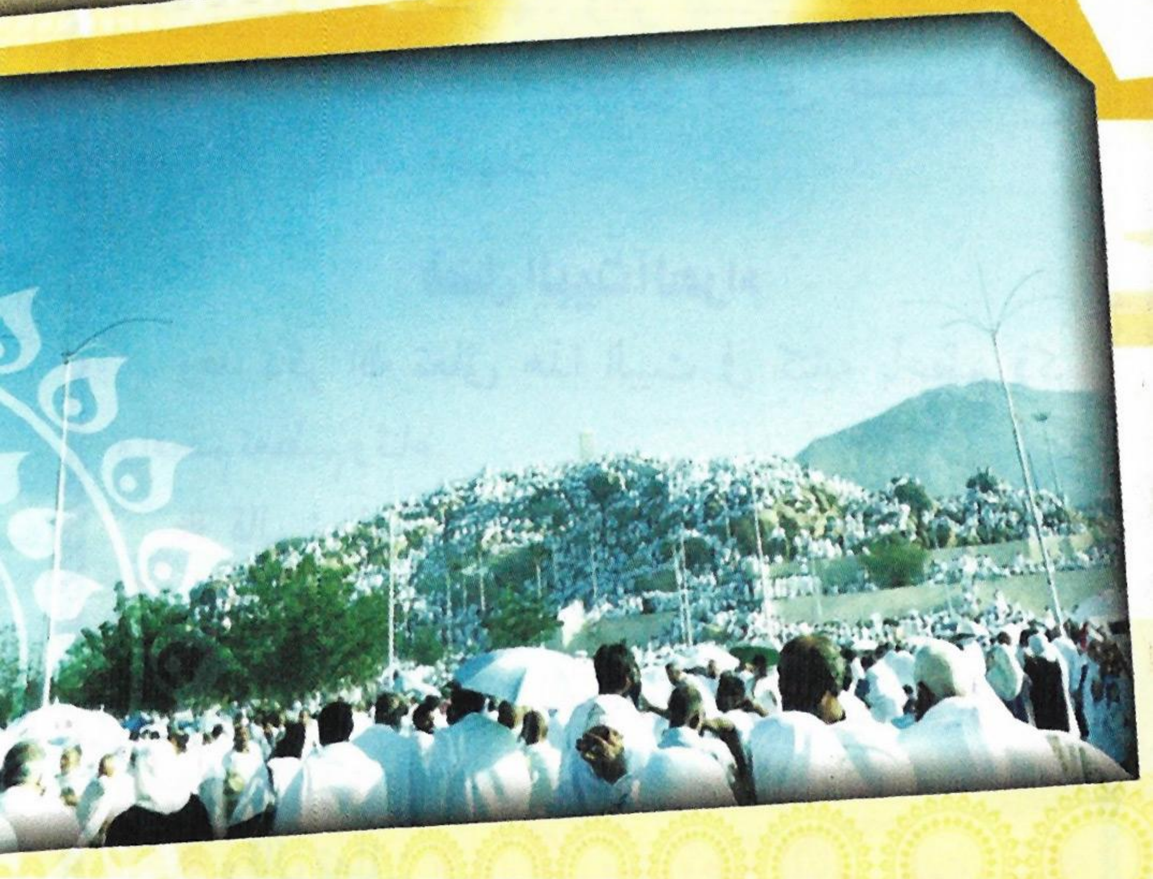

انتقاء
القسم العلمي بمدار الوطن

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب
الرياض - ص . ب ٣٣١٠ - هاتف ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس ٤٧٢٣٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: "أفضل الأعمال: إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيل الله، ثم حجّ مبرور".

وقد دلّ هذا الحديث على أن أفضل الأعمال بعد الجهاد في سبيل الله: جنس عمارة المساجد؛ بذكر الله وطاعته، فيدخل في ذلك الصلاة، والذكر، والتلاوة، والاعتكاف، وتعليم العلم النافع، واستماعه، وأفضل من ذلك عمارة أفضل المساجد وأشرفها، وهو المسجد الحرام بالزيارة والطواف، فلهذا خصّه بالذكر، وجعل قصده للحجّ أفضل الأعمال بعد الجهاد.

فضل البيت الحرام

وقد ذكر الله تعالى هذا البيت في كتابه بأعظم ذكر وأفخم تعظيم وثناء.

* **قال تعالى:** ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

* **وقال تعالى:** ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

* **وقال تعالى:** ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ

وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

فعمارة سائر المساجد - سوى المسجد الحرام - وقصدها للصلاة فيها، وأنواع العبادات من الرباط في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ في إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة: "فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط" [رواه مسلم]

فأما المسجد الحرام بخصوصه، فقصده لزيارته وعمارته بالطواف الذي خصّه الله به من نوع الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

الحج جهاد لا قتال فيه

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ فقال: "لكن أفضل الجهاد حجّ مبرور" يعني أفضل جهاد النساء.

ورواه بعضهم: "لكُنَّ أفضلُ الجهاد حج مبرور" فيكون صريحًا في هذا المعنى. وقد خرجه البخاري بلفظ آخر وهو: "جهادكنّ الحج" وهو كذلك.

وفي المسند وسنن ابن ماجه عن أم سلمة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: "الحج جهاد كلّ ضعيف" [رواه أحمد وابن ماجه].

وخرج البيهقي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: "جهاد الكبير والضعيف والمرأة: الحج والعمرة" [رواه أحمد والنسائي].

وعن عمر أنه قال: إذا وضعتم السروج - يعني من سفر الجهاد - فشدوا الرحال إلى الحج والعمرة، فإنه أحد الجهادين. وذكره البخاري تعليقًا.

وقال ابن مسعود ﷺ: إنما هو سُرُج ورحل، فالسرج في سبيل الله، والرحل الحجّ.

وإنما كان الحج والعمرة جهادًا، لأنه يجهد المال والنفس والبدن، كما قال أبو الشعثاء: نظرت في أعمال البرّ، فإذا الصلاة تجهد البدن دون المال، والصيام كذلك، والحج يجهدهما فرأيته أفضل.

- **وعن طاووس أنه سئل**: هل الحج بعد الفريضة أفضل أم الصدقة؟ قال: فأين ا لحلّ والرحيل، والسهر، والنصب، والطواف بالبيت، والصلاة عنده، والوقوف بعرفة وجَمْع[1]، ورمي الجمار؟ كأنه يقول: ا لحج أفضل.

فضل النفقة في الحج

وفي مسند الإمام أحمد عن بريدة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف" [رواه أحمد].

ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥، ١٩٦] ففيه دليلٌ على أن النفقة في الحج تدخل في جملة النفقة في سبيل الله.

وقد كان بعض الصحابة جعل بعيره في سبيل الله، فأرادت امرأته أن تحجّ عليه. فقال لها النبي ﷺ: "حجي عليه، فإن الحجَّ في سبيل الله" وقد خرجه أهل المسانيد والسنن من وجوه متعددة.

فضل الحج المبرور

وفي المسند أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: "إيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجة برّة تفضل

---

(١) جمع: المزدلفة.

سائر الأعمال ما بين مطلع الشمس إلى مغربها".

وثبت عنه ﷺ أنه قال: "من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه" [متفق عليه] فمغفرة الذنوب بالحج ودخول الجنة مرتب على كون الحج مبرورًا.

علامات الحج المبرور

وإنما يكون الحج مبرورًا باجتماع أمرين فيه:

* **أحدهما:** الإتيان فيه بأعمال البر. والبرّ يطلق بمعنيين، أحدهما: بمعنى الإحسان إلى الناس، كما يقال: البر والصلة. وضده العقوق.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن البر فقال: "حسن الخلق" وكان ابن عمر يقول: إن البر شيء هين؛ وجهٌ طليق وكلام لين. وهذا يُحتاج إليه في الحج كثيرًا؛ أعني معاملة الناس بالإحسان بالقول والفعل.

قال بعضهم: إنما سمي السفر سفرًا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وفي المسند عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "الحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" قالوا: وما برُّ الحج يا رسول الله؟ قال: "إطعام الطعام، وإفشاء السلام" وفي حديث آخر: "وطيب الكلام".

- **وسئل سعيد بن جبير:** أيُّ الحاجّ أفضل؟ قال: من أطعم الطعام، وكفّ لسانه. قال الثوري: سمعت أنه من برِّ الحج.

- **وقال أبو جعفر الباقر:** ما يُعبأ بمن يؤمُّ هذا البيت

إذا لم يأت بثلاثة: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحِلْم يكفّ به غضبه، وحسن الصحبة لمن يصحبه من المسلمين. فهذه الثلاثة يُحتاج إليها في الأسفار، خصوصًا في سفر الحج، فمن كملها فقد كمل حجّه وبرّ.

خدمة الحجيج

ومن أجمع خصال البرّ التي يحتاج إليها الحاج: ما وصى به النبي ﷺ أبا جري الهجيمي فقال: **"لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض"** [رواه أحمد والنسائي بألفاظ متقاربة].

وفي الجملة فخير الناس أنفعهم للناس، وأصبرهم على أذى الناس، كما وصف الله المتقين بذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والحاج يحتاج إلى مخالطة الناس، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.

قال ربيعة: المروءة في السفر: بذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله عزَّ وجلَّ[1].

---

(١) لأن السفر مظنة الوحشة والكآبة، فيحتاج فيه إلى نوع من المزاح والبسط بما لا يخرج عن حدود الشريعة.

- وجاء رجلان إلى ابن عونٍ يودعانه، ويسألانه أن يوصيهما، فقال لهما: عليكما بكظم الغيظ، وبذل الزاد.

الإحسان إلى رفقة السفر

والإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة، لا سيما إن احتاج العابد إلى خدمة إخوانه. وقد كان النبي ﷺ في سفر في حرٍّ شديد، ومعه من هو صائم ومفطر، فسقط الصُوّام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال النبي ﷺ: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر" [متفق عليه].

وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه، فكان يخدمني.

وكان كثيرٌ من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتنامًا لأجر ذلك.

- وكان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان.

- وكان ابن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم.

والمعنى الثاني مما يُراد بالبر: فعلُ الطاعات كلّها، وضدّه الإثم. وقد فسر الله تعالى البرّ بذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فتضمنت الآية أن أنواع البر ستة أنواع من استكملها فقد استكمل البر، وكلها يحتاج الحاج إليها؛ فإنه لا يصحّ حجّه بدون الإيمان، ولا يكمل حجّه ويكون مبرورًا بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن أركان الإسلام بعضها مرتبطة ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتى بها كلها، ولا يكمل برّ الحج بدون الوفاء بالعهود في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله إيتاءه، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر، وهاك أخي الحاج بعضًا من خصال البر المرجوة من الحج:

المحافظة على الصلاة

فأقام الصلاة أهم خصال البر، فمن حج من غير إقام الصلاة، لا سيما إن كان حجّه تطوعًا، كان بمنزلة من سعى في ربح درهم، وضيع رأس ماله وهو ألوف كثيرة.

- وقد كان السلف بواظبون في الحج على نوافل الصلاة. وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها، ويوتر عليها.

- وحج مسروق فما نام إلا ساجدًا!!

- وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله، يومئ إيماءً.

فنحن ما نأمر إلا بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، فإنه لا يرخص لأحدٍ أن يصلي صلاة الليل في النهار ولا صلاة النهار في الليل، ولا أن يصلي المكتوبة على ظهر راحلته، إلا من خاف الانقطاع عن رفقته، أو نحو

ذلك مما يخاف على نفسه.

كثرة ذكر الله

ومن أعظم أنواع بر الحج: كثرة ذكر الله فيه. وقد أمر الله بكثرة ذكره في إقامة مناسك الحج مرة بعد أخرى وخصوصًا كثرة الذكر في حال الإحرام بالتلبية والتكبير.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: "أفضل الحج: العجّ والثج" فالعجُّ: رفع الصوت بالتكبير والتلبية.

والثج: إراقة دماء الهدايا والنسك.

ذبح الهدي

والهدي من أفضل الأعمال. قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وأهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة.

اجتناب الإثم

الأمر الثاني مما يكمل برّ الحج: اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والمعاصي. قال تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي الحديث الصحيح: "من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه" [متفق عليه].

خير الزاد التقوى

فما تزود حاج ولا غيره أفضل من زاد التقوى، ولا دعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى.

قال بعض السلف لمن ودعه للحج: أوصيك بما وصى به النبي ﷺ معاذًا حين ودّعه: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع

السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن" [رواه أحمد والترمذي].

طيب النفقة

ومن أعظم ما يجب على الحاج اتقاؤه من الحرام، وأن يطيب نفقته في الحج، وألا يجعلها من كسب حرام. وقد خرج الطبراني وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: "إذا خرج الرجل حاجًّا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجُّك مبرور غير مأزور. وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لا لبيك، ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور" [رواه الطبراني].

الحذر من الرياء

ومما يجب اجتنابه على الحاج وبه يتم برّ حجه؛ ألا يقصد بحجّه رياءً ولا سمعة ولا مباهاة، ولا فخرًا، ولا خيلاء، ولا يقصد به إلا وجه الله ورضوانه، ويتواضع في حجه ويستكين ويخشع لربه.

وروي عن أنس أن النبي ﷺ حجّ على رحل رث وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: "اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة".

قال رجل لابن عمر: ما أكثر الحاجّ! فقال ابن عمر: ما أقلهم!

وقال شريح: الحاج قليل والركبان كثير، ما أكثر من يعمل الخير، ولكن ما أقل الذين يريدون وجهه.